# المحاضرة الأولى: الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر

**تمهيد:**

تعد الثورة الجزائرية (1954–1962) من أعظم حركات التحرر في التاريخ العربي الحديث، لما مثلته من مواجهة شاملة مع الاستعمار الفرنسي، ولما افرزته من دلالات سياسية وإنسانية وثقافية تجاوزت حدود الجزائر إلى الفضاء العربي والعالمين ولم يكن الشعر العربي الحديث والمعاصر بمنأى عن هذا الحدث المفصلي، إذ وجد فيه الشعراء مادة خصبة للتعبير عن تطلعات الأمة، واستنهاض الوعي القومي، وتأكيد قيم الحرية والكرامة الانسانية.

لقد مثل الشعر العربي منذ نشأته صوتا للمقاومة ووسيلة للتعبئة والتعبير الوجداني، ومن هذا المنطلق شكلت الثورة الجزائرية مصدر إلهام عميق للشعراء العرب على اختلاف اتجاهاتهم الفنية ومشاربهم الفكرية، فحضرت في قصائدهم بوصفها رمزا للبطولة والصمود، وتجسيدا لإرادة الشعوب في كسر قيود الاستعمار.

**-مجالات الكتابة حول الثورة الجزائرية:**

كانت الثورة الجزائرية مصدر إلهام جميع الشعوب المضطهدة، وكل إنسان يحب أرضه ويلتزم بقضايا أمته ولقد أشرقت أقلام الشعراء العرب المحدثين بالثورة الجزائرية، حيث أبدعوا خيرة ما كتب في هذا المجال، خاصة وأن الثورة الجزائرية هي الثورة الأولى في العالم التي حظيت باهتمام الشعراء، فلا نجد شاعرا عربيا إلا وكتب في الثورة الجزائرية، لأنها كانت ثورة شعب مقاوم.

كما أن الثورة الجزائرية جاءت بعد ثورات التحرر متواصلة في البلاد العربية، وحروب طاحنة ضد قوى الاحتلال المختلفة، وكذلك تنامي الحس الوطني القومي في معظم الدول العربية الإسلامية.

فلا ريب إذن أن نرى تأثر الشعراء العرب في العصر الحديث بالثورة الجزائرية التي ألهبت حماسهم وقصائدهم على حد سواء، فانطلقوا يدافعون عنها ويصفون أحداثها، حتى أصبحت عندهم مثالا حيا للحرية والاستقلال والسيادة الوطنية.

وقد انصب اهتمام شعراء الوطن العربي عامة، وشعراء الجزائر خاصة، على التغني بالثورة وتمجيد أبطالها، وتصوير معاركها، ويمكن القول إن موضوع الثورة الجزائرية في الشعر العربي قد اتخذ ثلاثة أشكال رئيسية:

أولا :**تصوير الثورة بوصفها معارك ووقائع**، ويتمثل ذلك في معاينة الأحداث العسكرية ورصد وقائع الثورة من خلال القصائد، كما فعل أحمد حجازي في قصيدته *الموت في وهران* (1935)، أو حسن عبد الله القرشي (1934)، حيث حضرت المعركة بوصفها مشهدا شعريا نابضا بالعنف والتحدي.

ثانيا :**التغني بالشهداء والمجاهدين والأبطال**، وفي هذا السياق برزت شخصيات رمزية خلدها الشعر، وفي مقدمتها المجاهدات الثلاث: جميلة بوحيرد، وجميلة بوباشا، وجميلة بوعزة، اللواتي كتب فيهن عدد من الشعراء، من ذلك قصيدة نزار قباني *جميلة بوحيرد*، وقصيدة سليمان العيسى عن الشهيد زيغود يوسف، وغيرها من القصائد التي جعلت من الشهيد رمزا للحرية والفداء.

ثالثا :**وصف الأمكنة بوصفها شاهدا على الثورة**، حيث تحولت الجغرافيا إلى ذاكرة ناطقة بالكفاح، كما في قصيدة أحمد حجازي *الأوراس*، وغيرها من النصوص التي جسدت المكان باعتباره فضاء للمقاومة ومخزنا للبطولة والتاريخ.

- **حضور الثورة الجزائرية في الشعر العربي الحديث والمعاصر:**

هزت الثورة الجزائرية وجدان الشاعر العربي منذ تفجيرها في نوفمبر 1954، واستمر ذلك إلى زمن ما بعد الاستقلال، ولا نبالغ إذا قلنا إن الشعر في كل قطر عربي، من بغداد إلى مراكش قد حفل بتناول الثورة الجزائرية وكفاح هذا الشعب الكبير، وبكل الأشكال الشعرية المتاحة. وقد عبر عن ذلك شاعر الثورة الجزائرية نفسه حين اعترف بمآزرة بلاد العرب قاطبة مع كفاح هذا الشعب الأبي، فقال في إحدى قصائده :

نسبٌ بدنيا العُرب.. زكَّى غرسَه ألمٌ فأورق دوحُـــه وتفرَّعَـا
سببٌ، بأوتار القلـــوب.. عروقُهُ إن رنّ هذا.. رنّ ذاكَ ورجَّـــعَا!
إمّا تنهَّد بالجـــــــزائر مُوجَع آسى «الشآمُ» جراحَه، وتوجَّـعَا!

واهتزَّ فـــي أرض " الكِنانة"خافقٌ وأَقضَّ في أرض العراق المضجعَا!
وارتجَّ فـــي الخضـراء شعبٌ ماجدٌ لم تُثنِه أرزاؤه أن يَفـــــــزعَا
وهوتْ «مُراكشُ» حـــولَه وتألمّتْ لبنانُ واستعدى جديسَ وتُبَّعـَا
تلك العروبةُ.. إن تَثُـــرْ أعصابُها وهن الزمانُ حيالَها، وتضعضـعَا!

وبصرف النظر عن قيمة القصائد التي قيلت في الثورة الجزائرية من حيث الجودة الشعرية، فإن الكم الهائل من الأشعار الموجهة إليها دليل كاف على أن العرب تفاعلوا معها تفاعلا ينم عن مؤازرة وإعجاب وتمن بالنجاح، لكونها تمثل فخرا لكل العرب والمسلمين. ولقد أكد عثمان سعدي الذي كان سفيرا بالعراق وسوريا أنه تمكن من " جمع 254 قصيدة في الثورة الجزائرية قالها 107 شعراء من العراق فقط ... و198 قصيدة قالها 62 شاعرا سوريا في الثورة الجزائرية." فكيف سيكون الحال إذا غطى الإحصاء شعراء باقي الأقطار العربية والإسلامية التي يحصي كل منها عددا كبيرا من الشعراء في مستوياتهم المختلفة عمرا وإبداعا؟

هذه الحقيقة يؤكدها عبد الله ركيبي من جهته، فيرى أن" ما من شاعر عربي – رغم كثرة الشعراء على الساحة العربية – إلا وذكر الأوراس في شعره سواء قليلا أو كثيرا، وربما كان ذكر الأوراس جواز مرور القصيدة إلى النشر حتى وإن لم تكن في مستوى يؤهلها لذلك".

وإذا بحثنا عن دوافع اهتمام الشعراء العرب بها وقفنا على ما يأتي :

–كونها ثورة عظيمة في زمنها ومكانها، بالنظر إلى حجم البطولات والتضحيات التي قدمها الشعب الجزائري في حرب غير متكافئة قد حظيت بالإعجاب والتقدير والتعاطف، ليس فقط لدى العرب أو المسلمين بل عند غيرهم من ذوى التوجه الإنساني العادل.

–كونها جاءت بعد ثورات تحرر متواصلة في البلاد العربية، وحروب طاحنة ضد قوى الاحتلال الغربي والصهيوني. ولعل مأساة فلسطين وعجز الأمة عن التخلص من هذا الكيان الغاصب المدعوم من القوى العظمى ومنها فرنسا كانا حاضرين في وجدان كل عربي، ، ما جعل تفجير الثورة الجزائرية أملا في استرجاع الأمة لبعض مجدها الضائع.

–تنامي الحس القومي في هذه الفترة، والشعور بوحدة المصير، الأمر الذي دفع الإنسان العربي إلى الرغبة في رؤية البلاد العربية تتحرر، استعداد لوحدة قومية مأمولة تكون خلاصا من التشرذم والتخلف والتبعية.

-إيمان الشعراء بأن للكلمة أهميتها في تحديد مصائر الشعوب، وفي دفع العمل النضالي والمسلح إلى تغيير الأوضاع السائدة.

الجوانب المتناولة في الثورة الجزائرية:

وكما ذكرنا سابقا قد تشعبت موضوعات الثورة عند الشعراء العرب لتشمل الثورة في ذاتها كفعل مضاد للاحتلال، والإنسان الذي يصنعها والمكان الذي يشهد على عظمتها، وارتباطها بمحيطها العربي والإقليمي:

**أ- الثورة بوصفها وقائع ومعارك:**

يعرف الشاعر إذن أن الكلمات تقصر عن نقل الوقائع في كمال جلائها، ولكنه مع ذلك يأبى إلا أن يقول كلمته، ويحاول قدر جهده أن ينقل للقارئ صورة تهزه وتؤثر في وجدانه؛ ولقد وفرت الثورة الجزائرية للشعراء جوا ملحميا فريدا ينظمون فيها الأشعار، ويتبارون في نقل الأحاسيس قبل نقل الوقائع؛ لأنهم بعيدون عن أرض المعارك وإن كانوا يتمنون المشاركة فيها .

يقول الشاعر السوري سليمان العيسى في أحد حواراته:" عندما قامت الثورة الجزائرية ثورة التحرير الكبرى كنا نتابعها يوما بيوم ومعركة بمعركة ونعد نفسنا من الثوار.. وان لم نشترك في الثورة أو نكون في جبال الاوراس. كنا نحلم أن نكون في الجبال مع المقاتلين لكن لم يتح لنا أن نحمل السلاح فوجدنا أننا نستطيع أن نساهم في هذه الثورة بأن ننقل لعنة المنفى إلى أصلها.. الى اللغة الأم, ففكرنا قليلا ووجدنا أن أحسن خدمة يمكن تقديمها لهذه أن نطلع الإخوة العرب على ما يقوله إخواننا في الجزائر دفاعا عن الأرض والقضية والحرية".

في هذا الإطار تأتي قصيدة أحمد حجازي (1935 -)(الموت في وهران) لتصف الجموع المقدمة في إصرار على انتزاع كرامتها دون خوف أو تردد:

من أبدل المعنى، فصار المنى
أن يلتقي صريعهم بالصريع؟
ومن أضاء للعيون الردى
وأطلع الفجر قبيل العزيع؟
يرونه ودونه مقتل،
يرونه، ولا يرون الرجوع
أريد أن أعثر فيهم على

مستدبر النار، فلا أستطيع
أكاد أن أهتف في جمعهم
عودوا ! وأخشى واحدا أن يطيع

إن التفاعل الوجداني مع الحدث جعل الشاعر يندمج في جو الثورة والإصرار على تحقيق أهدافها، فيجد في جموع الثوار ما يريده هو في قرارة نفسه فيطمئن إلى أن السهم انطلق ولن يعود، وأن العاصفة بدأت ولن تهدأ حتى تحقق دورتها، وأن الموت عند هؤلاء اصبح مألوفا وكأنه وجه للطلوع .

ويرفع حسن عبد الله القرشي (1934 –) آيات الإعجاب إلى الثورة التي صنعها من لا يخافون العدو ولا يهابون آلته الرهيبة، فهانت عندهم المصائب والأهوال طالما أنهم يؤمنون برسالتهم وبنصر الله لهم، فيقول :

كم رحت أهفو نحوهم في حلك الكفـــاح
لا يألمون للضنى، للـــــــهول، للجراح
ويغزلون في الدجى أجنـــــحة الصباح
"ذؤابة الأوراس" لا يرهـــــــبهم سلاح
شراعهم يهـــــــابه " القرصان" والرياح
ثاروا فيا أرض اشرقي بالمجد، يـــا بطاح
وكللي هاماتهم بالغـــــــــار يا أقاح

**ب– الشهيد والمجاهد بوصفهما بطلين:**

اعتلى الشهيد منصة التتويج بالشهادة والبطولة في شعر من يؤمنون بأن الحرية لا تعطى ولكن تؤخذ غلابا، فهو ليس ميتا عاديا تقام له المآتم وجلسات البكاء والعزاء، بل هو مسيح يتعالى إلى السماء كما صوره مفدي زكريا في قصيدته الشهيرة (الذبيح الصاعد).

يقول الشاعر السوري سليمان العيسى في تعظيم البطل الشهيد (زيغود يوسف):

"صمت على الوادي يروّع الوادي
وسحابة من لوعة وحداد
أرسى على الهضبات ريش نسورها
وتمزقت من بعد طول جلاد

هدأ الوميض.. فلا أنين شظية
يُصمي، ولا تكبيرة استشهاد"
إلى أن يقول:
"يا سفح يوسف يا خضيب كمينه
يا روعة الأجداد في الأحفاد
يا إرث موسى في النسور وعقبة
والبحر حولك زورق ابن زيّاد
يا شمخة التاريخ في أوراسنا
يا نبع ملحمة بثغر الحادي
أتموت؟ تاريخ الرجولة فرية
كبرى إذن، ووضاءة الأمجاد
أتموت كل حنية بجزائري
ميلاد شعب رائع ميلادي'

أما المجاهد والمناضل فلا يجدان من الشعراء إلا التبجيل والتقدير، خصوصا إذا ذاقا مرارة السجن؛ فهذه الشاعرة العراقية نازك الملائكة (1923 – 2007) تصور مكانة البطلة الجزائرية (جميلة بوحيرد) في قلوب العرب حين علموا بما لاقته هذه البطلة في سجون الاحتلال، وبقدر ما تعبر عن العجز عن تحريرها وتخليصها من العذاب والإهانة، تصور أشكال التنكيل الذي تعرضت إليه دون أن تتنازل عن مبدئها وهي المرأة التي كان يعتقد ضعفها وخوفها وإذا بها لبؤة شرسة في وجه الذئاب والضباع .

ويلفت انتباه الشاعرة طريقة المحتل في تعذيب هذه البطلة، وتحاول أن تواسي البطلة بآثار ذلك التعذيب وذلك الصمود المضاد في إذكاء روح التضامن مع (جميلة) ومع كل جزائري يجابه القوة العاتية، فتقول في قصيدة( نحن وجميلة) :

هم حملوها جراح السكاكين في سوء نية
ونحن نحملها–في ابتسام وحسن نية–
جراح المعاني الغلاظ الجهوله
فيا لجراح تعمق فيها نيوب فرنسا

وجرح القرابة أعمق من كل جرح وأقسى
فواخجلتا من جراح جميله!

وحظي اسم (جميلة) بكثير من الفخر في الشعر العربي، فإذا كانت بطلته الأولى هي (بوحيرد) فإنه ارتبط أيضا بمجاهدات أخريات منهن (جميلة بوباشا) و(جميلة بوعزة) وغيرهما، كما أن جنسهما والتحدي الذي يعنيه نظال امرأة في تلك الظروف القاسية جعل الشعراء يخصصون كثيرا من القصائد للبطولة النسوية في حرب التحرير الجزائرية .

غير أن جميلة بوحيرد خطفت الأضواء أكثر من زميلاتها لسبب وجيه هو حادثة التعذيب البشع الذي تعرضت إليه، وبخاصة في المناطق الحساسة من جسمها الأنثوي، ما دفع الشعراء العرب إلى تهويل هذا التعذيب في مقابل الفخر بالصمود الذي أبدته امرأة كان يعتقد أنها تضعف أمام المحتل، وإذا بها أفضل من كثير من الرجال قوة وشجاعة وصمودا. فلا غرو إذا أن تتحول إلى رمز أو أسطورة لا يستطيع كثير من الشعراء ذكر الجزائر دون ذكرها والتغني ببطولاتها.

فالقرشي يرسم لجميلة صورة تليق بها مناضلة أبية فيقول:

"جميلة " وأنت يا أنشودة الإباءْ
يا نغمة تشع بالطهر وبالصفـاءْ
شهيدة في وطني تضحك للفداءْ

وتستوحي الشاعرة السورية طلعت الرفاعي (1922 –) مثال جميلة لتسقطه على نفسها في تعبير واضح عن مناصرة المرأة المجاهدة، فتذهب في تفاعلها مع أحداث الثورة الجزائرية إلى أن تتصور نفسها بطلة أسيرة في الجزائر، لتنال الشرف والرفعة اللذين حظيت بهما أختها الجزائرية، فتقول:

أنا هاهنا من غرفة في السجن مظلمة رهيبة
هذه السطور أخطها في صمت وحدتي الكئيبة

وتطرح ما يتبادر إلى أذهان الجبناء والمتقاعسين عن أداء واجبهم تجاه أوطانهم، مفضلين العيش في هناء وغفلة، فتقول:

ما ضرني لو لم أثر، وبقيت في بيتي رهينة؟
أغفو على الريش الوثير، وأحتسي الكأس الرقيقة ؟

لكن متع الحياة مع المحتل مرارة، والمرأة والرجل في هذا الشعور سواء، لذلك تجيب المتسائل عن أسباب تضحيتها بقولها:

لا يا رفيق الدرب، لم أخلق لكي أحيا ليومي
درس الفدا أخذته عن والدي وخالي وأمي
ولقائل ما شأنها، ولكل هذاك العذاب؟
بي مثل ما بك من هوى الأوطان من حب الكرامة
إما حياة عز، أو موت به معنى السلامة.

إن نموذج جميلة في قصيدة الرفاعي دليل على أن جميلة أصبحت المثال الذي يحتذى به في ظروف تطلبت من كل شرفاء الأمة أن يكونوا قلبا واحدا مع الحق مهما استوجب من تضحيات، فنعومة المرأة ولطافتها ورهافة حسها كلها أمور قابلة للتعديل إذا تعلق الأمر بتبني قضية التحرر من قيود المستعمر الغاشم.

**ج- المكان بوصفه شاهدا على الثورة:**

حين كتب أحمد حجازي قصيدته (أوراس)، قدم لها بقوله:" إن أوراس في نظري ليست قصيدة قديمة، لقد منحها موضوعها فرصة الميلاد كل يوم، وأن كل ما هو بطولي في القصيدة يأتيها من الثورة، وكل ما هو فج فيها مرده إلى جوانب في نفسي لم تمتد إليها نار الثورة بعد".

وتختصر الأوراس من حيث كونها منطلق الثورة الجزائرية في شعر حجازي بلدا كاملا يشتعل ثورة، بل مغربا كاملا يعيش على وقع زلزال عنيف يبغي تطهير الأرض من دنس المحتل:

مدن المغرب
ترتج على قمم الأوراس
زلزال في مدن المغرب
لم يهدأ منذ سنين مائه
لم يترك في جفن أملا في نعاس
يأتي المولود على صوت الزلزالْ
ويموت رجال
فيودعهم صوت الزلزال.

ويحمل المكان في القصيدة ثقل الحدث الذي يقع فيه، بل يتبادلان الاعتزاز والفخر بجسامة التضحيات، غير أن المكان يلبس لبوس الرمز فيغدو لفظه ذا حمولة من المعاني الثرية والمتعلقة بالقيم والإنسان والزمان معا، فيحدث ذلك الانصهار الدلالي الذي يلخص العظمة في أوضح صورها.

ولا يتردد الشاعر سليمان العيسى في أن يجعل من الأوراس موطنا وجامع أشلاء، بل ونسبا وأصلا، لكونها أعادت له وللعربي كثيرا من الكرامة المهدورة، والعزة المفقودة ، فيقول:

حملت أجنحة الأطفال ملء يـدي وجئت أبحث يا أوراس عن جسدي
تقاسمتني الرياح السود فانـتزعي شرارتي وهبيني جمـــــرة لغدي
جزائر الدم، ردي لي صدى نسبي وعصّبي جبهتي بالأمس لا تزد

والشيء نفسه يقال عن وهران وقسنطينة اللتين شهدتا أحداثا جساما، ففي قصيدته( الطريق إلى قسنطينة) يعبر الشاعر العراقي سعدي يوسف (1934 – ) عن استعداده لبيع مكتبته ليشتري بندقية وليكون جنديا بهذه المدينة، فيقول :

أنا لستُ أملك بندقيه
لكنهم لو يسمحون هنا لأسرعنا إليك
ولبعتُ أوراقى ومكتبتى وجئتُ ببندقيه
ولكنتُ جندياً لديك
أمضى أُقاتلُ فى المدينه
من أجلِ أطفالِ المدينه
ولنسمة من برشلونه
ولوجهكِ العربيّ، يا ضوءَ الشمال...

أما وهران فقد ألهمت بطولاتها الشاعر العراقي بدر شاكر السياب(1926 – 1964)، الذي كثيرا ما أشاد بالثورة على الظلم، وأشاد بالحرية والانعتاق، وهاهو يهتز لما يحدث في وهران من بعث للحياة بعد الموت والسكينة للمحتل ، مستعينا لها برمز سيزيف الذي ثار على عقوبته ، وألقى عنه العبء، فيقول :

هذا مخاض الأرض لا تيأسي
بشراك يا أجداث حان النشور!

بشراك في (وهران) أصداء صور
سيزيف ألقى عنه عبء الدهور
واستقبل الشمس على (الأطلس) !

وإذا كانت وهران الجزائر قد نفضت عنها غبار العجز والاستسلام، وقامت لصناعة مجدها ومستقبلها، فإن وهران العراق ما يزال غارقا في مستنقع الحسابات الأجنبية والمصالح الضيقة، لهذا يختم السياب قصيدته (رسالة من القبر) بحرقة ولوعة تزيدهما أوضاعه الصحية مرارة، فيقول:

أه لوهران التي لا تثور!

ولا يقلل ذلك بالطبع من أهمية المدن الجزائرية الأخرى التي كان لكل منها ملحمته وبطولاته، بحسب الظروف الطبيعية والموقع الجغرافي، وما مثال مدن سطيف وقالمة وخراطة عنا ببعيد حيث شهدت واحدة من أبشع مجازر الاستعمار الفرنسي في حق الشعب الأعزل. وما لم يلتقطه الشعر الفصيح في هذا المجال عبر عنه الشعر الشعبي بغزارة وروعة.

- **الخـــاتمة:**

ومهما يكن من أمر، فإن عظمة الثورة الجزائرية سواء عبر عنها الشعراء بالصمت أو بالكلام، محرك من محركات الإبداع عندهم، ومصدر مهم من مصادر الإلهام؛ وعلى الرغم من كل ما قلنا فإن الشعر الذي تناول التورة الجزائرية في الجزائر كما في العالم العربي كثير لا تحصى قصائده. فقد تعددت أفكاره من تمجيد للشهداء، ورفض لأساليب المحتل الغاصب، وحث للشعب الثائر على الصمود والمواجهة، وذم لجرائم الاستعمار ضد الإنسانية وغيرها. وبقدر ما تشرفت ثورتنا المجيدة بجهود الشعراء، فقد تشرفوا هم كذلك بها، وهذه هي النتيجة الطبيعية لتلاحم الشعر مع الأحداث الجليلة.

وما أكد أصالة وصدق العلاقة بين الشعراء العرب والثورة الجزائرية سلسلة القصائد التي واكبت حركة البناء والتعمير التي بدأتها الجزائر بعد استقلالها، والتنويه بالدور الريادي لهذا البلد الكبير في مناصرة الشعوب المحتلة خاصة الشعب الفلسطيني الجريح، ولقد كانت المناسبات الوطنية في الجزائر فرصة للتعبير عن ذلك كله، سواء حضرها هؤلاء الشعراء أم غابوا عنها.